

المحاضرة (١٤)

شعره العاطفي

تطفح دواوين شكري الأربعة الأخيرة بالشعر العاطفي الفياض. وتمثل عاطفته في الحب نوعاً من التقديس لأنه في نظره- كما هو لدى الرومانتيكيين- وسيلة لتطهير النفس ولذلك عبر في عواطف حبه عن آلامه وعذابه.

وقد وجد هذا الحب لدى شكري (طريقة جديدة في الغزل، فلم يأبه بصفات الجسدية، وإنما اتجه إلى الروح، ليكشف جمالها، فالجسد فان، وعشق الجسد لا طائل وراءه، إلا اللذة الوقتية العابرة، أما شكري فيبحث عن السعادة الروحية، عن الحب الذي يضيف إلى رصيد روحه أرصدة غير فانية تظل حية، وأن سببت له العذاب، فالتوجع والآهات التي تتطلق منه تطهر روحه).

وتوضح قصيدته (مناجاة حبيب) هذا المفهوم الذي أشرنا إليه فهو يقول:

وإذا وضعتك في الجفون صيانة
أذرت عليك لدى البكاء حبيبا
وإذا رغبت لك الضلوع فإني
أخشى عليك لهيها المشبوبا
وإذا وضعتك في الفؤاد فإني
أخشى عليك من الفؤاد وجيبا
يا ليت حظي منك أني نفحة
تسعى إليك مع النسيم هبوبا

ولاشك أن في هذا الغزل رقة ما بعدها رقة، وهي رقة فيها صفاء ونعومة، وتغوص إلى أعماق الشاعر، فتعبر عن لهيب عواطفه المشبوبة. تلك العواطف الرومانتيكية التي تصل إلى حد تعذيب النفس لأنها ترى في هذا العذاب تطهيراً.

وعلى الرغم من أن الشاعر قضى حياته دون أن يرتبط برباط الزوجية، إلا أن فؤاده قد خفق بالحب واكتوى بناره، شأنه فيه شأن زميله العقاد، ونظرة إلى مجموعاته السبع، والاولى منها على الخصوص تستطيع أن تدلنا على ما كان يكابده في حبه. وربما استطاعت عناوين قصائده في الحب أن تدلنا على هذا التيار في شعره. فله مثلاً قصائد (مناجاة الحبيب) و(الحب والليل) و(مغالبة الهوى) و(مطال الهوى) و(الشاعر وحببيته) و(أمني الحب) و(زورة الحبيب) و(الحب والرقعة) و(عقيدة الحب) و(حالات الحب) و(رثاء الحب) و(لجاجة الحب) و(خطرات الحب)

و(اليأس من الحب) و(الحب الأعمى) و(الهوى) و(الحب الهالك) و(الحب يدعم بالحب) و(إسعاد الهوى).

فإذا علمنا أن هذا العدد من القصائد قد ورد في ديوان واحد من دواوينه السبعة أدركنا مدى غلبة التيار العاطفي في شعره، مما يوضح عنف هذا التيار الذي يسير في رافد واحد مع التيار الرومانتيكي.

وكما يرتبط الحب في شعر شكري بالطبيعة، فإنه يرتبط بالعديد من مظاهره كالنجوم والليالي والهلال والبدر والورود والبحار. وكذلك ترتبط به الألوان كلها ففي البيتين الآتيين يرتبط الحب بالهلال والنجوم والبدر والزهور:

يحدثني عنك الهلال إذا بدا
وتخبرني عنك النجوم الزواهر
وأني أحب الدبر من أجل حبكم
وتسعدني حتى أراك الأزاهر
وكذلك الليل، بقوله:

واهتف طوال الليل باسمك جاهداً
وهاجس هذا الذكر داء مخامر
والماء والزهر والجنة:
ويا حبة الحسن الذي أنا آمل
غديرك ملآن وزهر ناضر
وكذلك ارتبط في مجال معاناة الحب، بأموج البحر وظلام الليل وأعاصير الرياح:

حياتي إذا ما غبت عني زواخر
تموج وأظلام الدجى والأعاصر
فأي بقاء من بعد بعدك نافع
وأي رجاء من بعد بعدك باهر

وكما ارتبط الحب لديه بمظاهر الطبيعة، فقد ارتبط بالموت لأنه يرى أن الموت حقيقة واقعة، وهذا يتصل بتياره التفاؤلي الفلسفي الذي درسناه. وهو ما يؤكد أن التيارين التأملي الفلسفي، والعاطفي، لا يسيران بخط متواز وإنما يلتقيان على صعيد التجربة الحياتية للشاعر. لأنه يستمدّها من حياته الخاصة بعيداً عما يحيط به، فهو شاعر ذاتي كامل الذاتية.

وصور حبه التي ترتبط بالموت، رهيبة قاسية، تعكس معاناته الشديدة في تجاربه العائرة. لذلك ارتبط الحبيب لديه أحياناً بالموت والذود والقبح والريح النتنة ويقول:

سينفذ فيك الموت أمراً مقدرًا وتلقي الذي قد كنت ما قد تحاذر
ويأكل منك الدود ما شاء حقة ووجهك مقبوح وعظمك ناخر

وهذا الطريق الذي سلكه في حبه، هو الطريق نفسه الذي سلكه بعض الشعراء الرومانتيكيين الذين تلذذوا بالألم واستأنسوا بعذابه.

وأكبر الظن أن عبد الرحمن شكري ما كان ليقبل الحب الذي يأتيه يسيراً طبعاً من غير مكابدة أو عناء، ولو أنه أتاه على هذه الصورة لرده، لأن قلقه الفكري والاجتماعي الذي اسلمه إلى التأمل الفلسفي الذي عذبه وارهقه، هو الذي اسلمه إلى هذا التنوع من الحب الذي يعذب صاحبه ويضنيه. والواقع أن عذا العذاب الذي يفهمه الناس العاديون، ربما يكون مطلباً أثيراً لدى الرومانتيكيين الذين فلسفوه وفقاً لمواقفهم الفكرية الخاصة. ومنها انطلقوا في التعبير عن نظرتهم إلى الحياة والكون والطبيعة والإنسان، وما يتصل به من حب وبغض وسعادة وشقاء.

ووفق هذا المنظور، ظل شكري ورفاقه، يحملون هذه الدعوة، ويبشرون بها في شعرهم وجرى في ذلك شعراء أبولو من بعدهم.

ومهما يكن من أمر هذه المواقف التي تنطلق من فلسفة الشعراء الذاتيين العاطفيين فإن شكري كان من أشد شعراء الديوان تحقيقاً لهذا التيار الذاتي المدمر. لأن نتائجه قد انسحبت على ذات الشاعر، فأحالتها إلى كيان متشائم، لا يعرف سبيلاً إلى النفاذ، إلا في أقل الحدود وأندر المواقف.